موقع العشائر العراقية في المصادر البريطانية خلال العهد العثماني

د. شاكر حسين دمدوم الشطري / جامعة ذي قار / كلية الآداب

احتلت المؤلفات البريطانية عن العشائر العراقية مكانة بارزة في المصادر الأجنبية التي تناولت تاريخ العراق الحديث. ولا تقل المصادر الوثائقية الرسمية المنشورة أهمية، لما تضمنته من معلومات غاية في الأهمية تخص موضوعات غير قليلة عن العشائر العراقية، من ذلك، على سبيل المثال، كتاب المؤلف الهندي جيروم أنتوني سالدانها (Saldanha) المعنون:

"Précis of Turkish Arabica Affairs 1801–1905, Volume VI".

ملخصات عن الشؤون العربية التركية 1801-1905. وكان يتكون من ثمانية مجلدات، موزعة على مناطق الخليج. واختص المجلد السادس منه بملخص للشؤون العربية التركية بما فيها العراق للمدة (1801- 1905). ففي العام 1903 تم ترشيح سالدانها، وهو قاض في الخدمة المدنية في مقاطعة بومباي، لمساعدة لوريمر؛ إلى جانب الملازم الأول سي. إتش. غابريل، احد منتسبي الجيش الهندي والمسؤول عن تلك الملخصات على تجارة الأسلحة .

كانت مهمة سالدانها العمل من خلال المحفوظات الحكومية في بومباي وكالكتا وتلخيص الأوراق المتعلقة بالخليج. في أقل من عامين. ولخص سالدانها السجلات التي يعود تاريخها إلى 1600 وأنتج عمله الشامل من (معلومات قيمة ودقيقة) على حد تعبير لوريمر. وطبعت تلك الملخصات ووزعت على المسؤولين البريطانيين. اعتمد لوريمر بصورة كبيرة على محتويات تلك الملخصات لقسمه التأريخي.

تكمن الغاية الرئيسة من تأليف هذا الكتاب في الطعن الذي كان يجري في نهاية القرن التاسع عشر من موقف بريطانيا من جانب القوى الاستعمارية كفرنسا وألمانيا وروسيا والدولة العثمانية أهمية قصوى في الخليج. وعلى اثر ذلك ردت الحكومتين البريطانية في لندن والهند عن سياستها لتعزيز نفوذها في المنطقة طالما اعتبرت مفتاح للدفاع عن الإمبراطورية في الهند هو منطقة الخليج. وكخطوة تحضيرية، وضعت خلفية وثائقية عن المنطقة طبقاً لتقارير المسؤولين البريطانيين الذين كان لهم خبرة في شؤون المنطقة من اجل خلق موظفين كفوئين. وضم المجلد السادس من هذا الكتاب معلومات غير قليلة عن العشائر العراقية خلال المدة (1801- 1905)، وقد اعتمد في إعداد كتابه على سجلات حكومة الهند البريطانية ووثائق القنصلية البريطانية العامة في بغداد. وتألف الكتاب من أربعة أقسام تناول الأول منها شؤون العراق الداخلية لاسيما شؤون العشائر.كما تضمن الكتاب عرضًا شاملاً

للمصالح البريطانية في العراق وعلاقات الدبلوماسيين البريطانيين المحلية، ومهامهم، وحماية ممتلكات رعاياهم في العراق في الأقسام الأخرى.

وكتابي Robin Bidwell وهما عبارة عن مجموعة التقارير المحفوظة في المكتبة المركزية في جامعة بغداد بعنوان:

"The Affairs of Arabia 1905-1906,Vol I ,Vol. 11"

شؤون بلاد العرب 1905-1906، المجلد الأول والمجلد الثاني.

"The Affairs of Kuwait 1896–1901,Vol. I,1902–1905, Vol. II".

شؤون الكويت 1896-1901، المجلد الأول، 1902-1905 المجلد الثاني.

وهو عبارة عن مجموعة من التقارير الإدارية استخرجت من السجلات البريطانية المختلفة لوزارتي الهند والخارجية، جمعها وصنفها روبين بيدويل سكرتير مركز الشرق الأوسط في جامعة كامبردج تناولت بشيء من التفصيل مجمل الأحوال السياسية والاقتصادية لبعض عشائر جنوبي العراق وعلاقاتها مع الدولة العثمانية طبقاً للتقارير المتبادلة بين المسؤولين السياسيين البريطانيين في البصرة وبغداد واسطنبول.

ومن بين ابرز الكتب المعتمدة في دراسة العشائر العراقية كتاب:

"Gazetteer of Arabian Tribes"

أو (دليل العشائر العربية)، إذ إن هذه المؤلفات أفردت عناوين خاصة عن العشائر العربية ومنها العشائر العراقية، وهي على شكل تقارير منشورة جمعها Richard Trench محفوظة في مكتبة بيت الحكمة ببغداد، وهذا الكتاب يتكون من (18) مجلد، ذكرت العشائر العراقية في مجلدات مختلفة من هذا الكتاب حسب الحروف الأجنبية. فضلاً عن عرض نبذة مختصرة عن شيوخ العشائر وموقفهم من السياسة التي اتبعتها السلطات العثمانية وفقاً لتقارير القناصل البريطانيين العاملين في العراق. وهي حقائق تمتاز بألدقة الكبيرة لكي يثبت هؤلاء القناصل كفاءتهم امام مرؤوسيهم، سواءاً في اسطنبول او لندن او حكومة الهند.

أما كتاب 'The Muntafiq'، "المنتفق" الذي أصدره فرع البصرة لـ "المكتب العربي" (The Arab Bureau)، بأشراف سلطة الاحتلال البريطاني سنة 1917، ذكرت فيه أسماء عشائر المنتفق بتفصيل دقيق مسبوقاً بمقدمة تاريخية عن المنتفق، وذكر أسماء شيوخ تلك العشائر وعدد نفوسهم وعدد البيوت والاكواخ التي تمتلها كل عشيرة، فضلاً عن القوة التسليحية لتلك العشائر. وكتاب:

"Hand book of Mesopotamia"

أو "دليل بلاد ما بين النهرين"، الذي أصدرته دائرة استخبارات البحرية البريطانية بجزأين يضمّان مجموعة كبيرة من الوثائق المهمة، و"دليل بلاد العرب1913–1917" (Handbooks of Arabia, 1913- 1917)، الذي أصدرته الحكومة البريطانية سنة 1917، وأعيد طبعه سنة 1988 ضمن كتاب وثائقي عن الحرب العالمية الأولى ويتكون الكتاب من ثلاثة مجلدات يضم في صفحاته اغلب العشائر العراقية. والجزء الأول من "تقارير العام 1918 الإدارية عن المقاطعات والمناطق المحتلة من بلاد مابين النهرين":

(Reports of Administration for 1918 of Divisions and Districts of the Occupied Territories in Mesopotamia).

فضلاً عن بعض الكتب الوثائقية الأخرى مثل كتاب: "The Arab of Mesopotamia " الذي أصدره مكتب المفوّض المدني عام 1917.

وكذلك كتاب: "Record of Iraq 1914-1966 " , Vol. 15، فضلاً عن كتاب:

"Notes on the Tribes of Southern Kurdistan Between The Greater Zab and the Dialah".

تكمن القيمة التاريخية لهذه التقارير في أنها مادة أولية للبحث عن العشائر العراقية، لأنها قدمت تفصيلات دقيقة ووافية عن مجرى الأحداث التي شهدها العراق، لأن المسؤولين البريطانيين كانوا حريصين على كشف الحقائق كما هي لمراجعهم العليا من اجل إثبات قدراتهم ومهاراتهم أمام تلك المراجع.

وقام هارولد ديكسون بتأليف كتابين اولهما (عرب الصحراء):

The Arab of Desert

تناول فيه المؤلف مبحثاً كاملاً عن عشائر المنتفق، إضافة إلى عشائر أخرى ورد ذكرها. إذ افرد المؤلف فصلاً مهماً عن تأريخ عشائر المنتفق موضحاً الكثير من الحقائق التأريخية بحكم عمله السياسي في تلك المنطقة خلال الحرب العالمية الأولى، وانفرد بتلك الحقائق التي أصبحت تاريخاً يضاف الى تاريخ تلك المنطقة.

أما المصدر الآخر فهو (الكويت وجاراتها):

Dickson: Kuwait and Her Neighbors

توجه إلى العراق عام 1914 في الحرب العالمية الأولى وشارك في العمليات التي أدت إلى الاستيلاء على البصرة والناصرية، بما في ذلك معركة الشعيبة. وفي آب من عام 1915 انتقل إلى

العمل في الإدارة السياسة تحت رئاسة السير بيرسي كوكس، وساعد في تنظيم الإدارة المدنية في جنوبي العراق ثم عين حاكماً في مدينة سوق الشيوخ، والمنطقة المحيطة بها على نهر الفرات وبعدها ألحقت بأعماله وظيفة الوكيل السياسي في الناصرية عام 1917. واعتمد ديكسون في معلوماته التي عرضها في هذا الكتاب على تقارير الضباط البريطانيين الذين كانوا يعملون تحت إدارته في لواء المنتفق.

ومع نهايات القرن الثامن عشر، بدأ يظهر مصطلح جديد في الحياة الثقافية الأوربية ألا وهو الاستشراق (Orientalism)، وكان مصحوبا بأسفار الرحالة والمستكشفين الأوربيين إلى بلاد المشرق، إذ بدأ أولا في بريطانيا عام 1779، ثم انتقل الي فرنسا في مطلع عام 1799، وبحلول عام 1838 كان هذا المصطلح قد تم إدراجه في قواميس الأكاديمية الفرنسية.

أما بالنسبة للرحالة البريطانيين، فقد زار العراق في العهد العثماني العديد منهم ضمن مهام مختلفة ومتباينة بين رحالة وأخر فمنهم من أتى للعمل بالآثار وجمع المخطوطات لصالح المتحف البريطاني ومنهم من أتى لاستكشاف المنطقة ومنهم من جاء للتحقق من وجود بعض الأماكن المذكورة في الكتب الدينية المسيحية واليهودية ومنهم من قدم لأغراض سياسية وما إلى ذلك. وما يهمنا في هذا الموضوع أن معظم الرحالة الذين زاروا العراق قد دونوا تفاصيل دقيقة جدا عن مشاهداتهم فيها لاسيما عن العشائر العراقية. ولكن حركة هؤلاء الرحالة بدأت في النشاط والظهور علي صفحات الكتب مع ازدياد نفوذ بريطانيا العظمى في بلاد الهند والعراق في بداية القرن التاسع عشر، ومنذ ذلك التاريخ بدأت عمليات المسح الدقيق للعراق، فخرجت أفواج الرحالة والمستشرقين فرادا وجماعات في اثر بعضها، وتكمن أهميتها في مادتها الغزيرة ومنهجيتها التي درست جوانب مختلفة وممتعة من تاريخ العراق، قد تفتقر اليها مصادرنا المحلية. وقد حظي العراق بالنصيب الأكبر من تلك الرحلات والكتابات، إذ تقطن العشائر العربية، فضلاً عن وجود المواقع الأثرية التي تعد مادة أساسية وقوة جذب لتلك الرحلات.

وعلى اثر ذلك صدرت مؤلفات الرحالة البريطانيون الذين زاروا العراق وكان لها أهمية كبيرة، وتعد كتاباتهم مصادر مهمة، إذ تناول مؤلفوها أوضاع العراق من جميع الجوانب بوصفها كتابات لشهود عيان دونوا ما وجدوا أمامهم من معلومات عامة عن العشائر العراقية، وان كانت تحمل بعض الأحيان وجهات نظر شخصية عن بعض الأحداث أو المناطق أو أسماء شيوخ العشائر العراقية، منها رحلة وليم هود سنة 1817 المعنونة:

"A Voyage up the Persian Gulf and a Journey Overland from India to England in 1817"

التي شملت مناطق عدة في الخليج والهند والعراق، مسجلاً تفاصيل دقيقة عن حياة أهلها الاجتماعية بصورة خاصة. وذكر تفاصيل دقيقة عن المدن والقرى التي مرّ بها منطلقاً من البصرة بأتجاه سوق الشيوخ فالشطرة مروراً بالحي ثم الكوت منطلقاً نحو بغداد. مموهاً لمناطق شيوخ العشائر التي مرّ بها بأنه احد أقارب والي بغداد، وانطلت تلك الحيلة عليهم.وذكر في رحلته تلك اسماء الشيوخ والعشائر المنضوية تحت رئاستهم، كما تناول العادات والتقاليد الاجتماعية، فضلاً عن الطعام الذي قدم له. ورحلة جونز المعنونة:

"Selections from the Records of the Bombay Government, No. XLIII"

تعد رحلة جونز إلى العراق إحدى الرحلات المهمة، وقد يكون ما جاء فيها من معلومات وإحصاءات وتفصيلات عن الأحوال الاجتماعية والاقتصادية عن العشائر العراقية أفضل ما دونه الرحّالة والمؤرخون الأجانب عن العراق.

ترك جونز معلومات كثيرة عن العشائر المستقرة، إذ افرد في رحلته هذه عنواناً خاصاً عن العشائر العراقية، فقد أسهب هذا المؤلف بتفاصيل دقيقة جداً عن تلك العشائر من حيث معيشتها ومكان استيطانها والمهنة التي تمارسها تلك العشائر وعلاقتها مع السلطات الحكومية يومذاك، فضلاً عن علاقة تلك العشائر بعضها مع البعض الآخر. وأيضاً الرحلة التي قام بها إلى العراق كلوديوس جيمس ريج بين عامي 1820-1821 المعنونة:

" Narrative of a Residence in Koordistan"

إذ برز اهتمام المسؤولين البريطانيين من اجل تقوية النفوذ البريطاني بين صفوف العشائر الكردية، بإقامة علاقات مع القوى المتنفذة فيها. ويعد الباحث والرحالة المستر كلوديوس جيمس ريج، أحد ألمع الرحالة والباحثين والمستشرقين الذين زاروا وتفقدوا كردستان، فكتب عنها بمنتهى الصدق والأمانة، وان ما دونه عن العشائر الكردية والعربية والأيزدية على جانب كبير من الأهمية. وكان ريج يشغل منصب القنصل البريطاني في بغداد (1808-1821)، وهو أول دبلوماسي بريطاني في العراق يبدي اهتماما خاصا بالمنطقة الكردية، فقد قام في السنوات 1820-1821 بجولة في المنطقة الكردية، بدعوة من حاكم السليمانية محمود باشا البابانى. ومن نتائج تلك الجولة إقامة صلات مع بعض شيوخ العشائر هناك، لاسيما في منطقة السليمانية، منهم خسرو باشا شيخ عشائر الجاف والشيخ حسن شيخ عشيرة البيات[1]. كما حرّض البريطانيون بعض شيوخ العشائر الكردية ضد داود باشا، عندما صادر

(1) كمال مظهر احمد، كردستان في سنوات الحرب العالمية الأولى، ترجمة: محمد الملا عبد الكريم، بغداد، 1984، ص34؛ خليل علي مراد، دوافع رحلات الانكليز إلى الموصل وأطرافها في القرن التاسع ومطلع القرن العشرين، الموصل، 1997، ص159.

بضائع شركة الهند الشرقية وأغلق جميع مؤسساتها وأبعد مستخدميها عن العراق[2]. وأيضا رحلة جيمس بيللي فريزر عام 1840 المعنونة:

(Travels in Kurdistan and Mesopotamia)

وكذلك الرحلات العديدة التي قام بها اوستن هنري لايارد (A.H.Layard)[3] أثناء تنقيباته في العراق ومنها:

(Discoveries in the Ruins of Nineveh and Babylon ,With Travels in Armenian, Kurdistan and the Desert)

والرحلة التي قام بها أيضاً عام 1849 المعنونة:

(Nineveh and its Remains)

وكذلك الرحلة التي قام بها عام 1894 المعنونة:

(Early Adventures in Persia , Susiana And Babylonia)

وسعى لايارد إلى كسب زعماء العشائر الذين كانوا على تماس مباشر مع عمله منهم الشيخ عبد الرحمن من عشيرة آلبو سلمان والشيوخ عبد ربه ومحمد داغر من الجبور، والشيخ صفوق شيخ شمر الجربا. إذ كان يمنحهم هدايا من ملابس حريرية وبعض القهوة والشاي[4]. كما زار لايارد المناطق الجنوبية من العراق والتقى بالشيخ عگاب شيخ عشائر عفك وهي عشائر عربية تعيش في الأهواز [5]. وخلال التنقيبات الأثرية كانت هنالك مؤلفات منها رحلة جون بانت بطرس المعنونة:

(Nippur or Explorations and Adventures on the Euphrates)

خلال عامي 1888- 1890 والرحلات التي قام بها الرحالة والأثري البريطاني سر وليس بدج المعنونة:

(By Nile and Tigris)

---

(2) بونداريفسكي، سياستان إزاء العالم العربي، ترجمة: خيري الضامن، موسكو، 1975، ص25-26.

(3) أي.رويستن بايك، قصة الآثار الآشورية، ترجمة: يوسف داود عبد القادر، مراجعة: لطفي الخوري، بغداد،1971، ص47-50؛ محمد داخل كريم السعدي، المصالح الأجنبية في الموصل 1834- 1914، رسالة ماجستير، كلية الآداب- جامعة الموصل، 1999، ص67-72.

(4)Austen Henry Layard, Discoveries in the Ruins of Nineveh and Babylon, With Travels in Armenian, Kurdistan and the Desert, London,1853, PP. 39-49, 102-103, 108.

(5) نورا كوبي، الطريق الى نينوى، ترجمة: سلسل محمد العاني، مراجعة:هادي الطائي، بغداد، 1998، ص70-71.

بين عامي 1886- 1913. وتجسد ذلك عندما اظهر بدج تعاطفه مع الأيزديين في سنجار، أثناء زيارة قام بها إلى قرى سنجار شتاء 1890-1891، نتيجة لتعرضهم لمظالم متعددة على يد القائد العثماني أيوب بيك وجنوده. وكتب بدج عما كان يجري في سنجار الى وليم وايت السفير البريطاني في اسطنبول (1886-1891) حسبما طلب منه الأيزديون وقائممقام سنجار[6]. وكذلك الرحلات التي قام بها جسني منها

(Narrative of the Euphrates Expedition)

و

(The Expeditions for the Survey of the Rivers Euphrates and Tigris)

إذ طلبت الحكومة البريطانية من جسني إجراء مسح نهر الفرات، ومعرفة مدى صلاحيته لحركة الملاحة النهرية، المهمة التي بدأها بين عامي 1830- 1831 من اجل سد الطريق على أية محاولة غير بريطانية للتغلغل في العراق، فضلاً عن جعل طريق الفرات جزءاً من طريق يؤدي الى الهند[7]، والتي اثبت خلالها صلاحية نهر الفرات للملاحة شريطة تأمين نشاط العشائر العراقية على ضفتي النهر التي كانت في نزاع مستمر مع الدولة العثمانية. فاقترح على حكومته أن مشروعه لن يكتب له النجاح إلا في حالتين: الأولى إقامة صلات مع العشائر المتنفذة على طول النهر التي يعتقد أن لها أثراً في تأمين حركة النشاط الملاحي عند البدء به، والثانية استخدام القوة المسلحة إذا ما واجه معارضتهم[8].

ففي الوقت الذي أعلنت فيه عشيرتا شمر الجربا وعْنِزَهْ في منطقة الجزيرة الفراتية استعدادهما لتقديم المساعدة للبعثة، وقفت عشائر الجنوب في السماوة وسوق الشيوخ[9]، بالضد من المشروع البريطاني، وقررت استخدام كل ما لديها من إمكانات لإفشاله وعدم التعاون مع أعضاء البعثة التي ذكر

(6) سر وليس بدج، رحلات إلى العراق، ترجمة: فؤاد جميل، ج2، بغداد، 1968، ص108-115.
(7) لمعرفة تفاصيل بعثة جسني الملاحية. ينظر:
F.R.Chesney , Narrative of the Euphrates Expedition, London , 1868 ,PP.201-204.
(8) باسم حطاب الطعمة، تغلغل النفوذ البريطاني في العراق 1798-1831، رسالة ماجستير، كلية الآداب - جامعة بغداد، 1985، ص146-147؛ جاسم محمد هادي القيسي، أحوال العراق الاقتصادية والاجتماعية 1831-1869، رسالة ماجستير، كلية الآداب- جامعة بغداد، 1985، ص19؛ هشام سوادي هاشم السوداني، الموصلات التجارية في العراق 1831-1914، رسالة ماجستير، كلية التربية - جامعة الموصل، 1997، ص65-66.
(9) للتفاصيل عن موقف عشائر الجنوب وإجراءاتهم بشأن البعثة. ينظر:
Chesney,Narrative of the Euphrates Expedition,PP.201-204, 238-239 , 289-29, 293.

جسني في وقتها، أن السبب يعود إلى النظرة الدينية للعشائر العربية إزاء القادمين الجدد[10]. والرحلة التي قام كريتان كيري Gratain Geary المعنونة:"عبر تركيا الآسيوية" (Through Asiatic) Turkey، ونشرها عام 1878 التي توضح بعض جوانب المهمة عن العشائر العراقية.

وجاءت رحلة الليدي آن بلنت Lady Anne Blunt المعنونة "عشائر بدو الفرات" (Tribes Bedouin of the Euphrates)، في سنة 1878 من بين اهم الرحلات، التي قامت بها مؤلفة الكتاب، اذ أرادت من خلالها الوصول إلى عشائر شمر، فعرضت معلومات وافية عنها من حيث فروعها وتقسيماتها وأعدادها، مع الإشارة إلى عشائر أخرى كعشائر عنزة وعلاقتها بالأولى. ويمثل عمل السيدة آن بلنت نوعاً من الدراسة الميدانية عن العشائر العراقية أثناء حكم السلطان عبد الحميد الثاني، إذ ان أوصافها لأوضاع العشائر آنذاك تكشف حالة البؤس العام والفقر بين عموم العشائر، مركزه اهتمامها الى حد كبير على عشائر شمر الجربا والمنتفق وهي العشائر الأقوى في العراق يومذاك.

فان الملاحظات والانطباعات التي تركها أولئك الرحالة، تشكل ثروة تاريخية، تعد اليوم مراجع علمية وتأريخية واركيولوجية قيمة عن وطننا. بسبب ندرة المعلومات المحلية المدونة عن العشائر العراقية في تلك المدة الزمنية. كما نلاحظ بأن حجم الرحلات البريطانية بدأ يتزايد في العراق في بداية القرن التاسع عشر، بفعل تأثير التنافس الدولي بشكل عام والتنافس الفرنسي بشكل خاص.

بينما جاءت الكتب البريطانية المعربة لتتناول العشائر العراقية، منها "العراق في الوثائق البريطانية 1905-1930 " التي جمعها وترجمها فؤاد قزانجي، وقد ساعدت هذه الوثائق رغم قلتها في دعم ما جاء في فصول الدراسة إلى حد ما. كما أضافت بعض الكتب الوثائقية المعربة بعداً جديداً آخر عن العشائر العراقية ككتاب " دليل الخليج " بقسميه التاريخي والجغرافي المتضمن مجموعة من الوثائق البريطانية جمعها جون جوردون لوريمر (J. G. Lorimer)، كونه يعتمد على سجلات حكومة الهند التي لم يسمح بألإطلاع عليها لغاية العام1960، وهو يوفر معلومات حول أحداث سياسية متنوعة في الخليج العربي بصورة عامة والعراق بصورة خاصة، وتحديداً في الجزء الرابع الذي يدور حول العلاقات بين العشائر والحكومة العثمانية. ويمكن ان نلمس من ثنايا " دليل الخليج " الكثير الذي يخص استخدام العثمانيين لنشر العداوة بين العشائر الكبيرة، مثل شمر الجربا وعنزة من اجل تحقيق تفوقهم عليها. وكتاب " تقرير سري لدائرة الاستخبارات البريطانية عن العشائر والسياسة " للدكتور عبد الجليل الطاهر. وغيرها من المصادر الوثائقية التي تنطوي على معلومات دقيقة ووافية عن

(10) عبد العزيز سليمان نوار، تاريخ العراق الحديث من نهاية حكم داود باشا الى نهاية حكم مدحت باشا، القاهرة، 1968، ص259؛ صادق ياسين الحلو، التحدي الأوربي، بحث في كتاب (العراق في مواجهة التحديات)، ج3، بغداد، 1988، ص118.

أسماء عشائر المنطقة وشيوخها وعدد بيوتها وأسلوب حياتها الاجتماعية والاقتصادية والصراع في ما بينها وإسهاماتها في الحركة الوطنية سواء في العهد العثماني، أم في عهد الاحتلال البريطاني. أما كتاب مارك سايكس: " القبائل الكردية في الإمبراطورية العثمانية" فقد شكل مصدراً رئيساً ومهماً فيما يتعلق بالعشائر الكردية.

أكد المؤرخون والكتاب البريطانيون، ومنهم على سبيل المثال الضابط ستيفن همسلي لونكريك في كتابه: "أربعة قرون من تاريخ العراق الحديث"، أن العشائر العراقية التي كانت ممثلة باتحادات العشائر كالخزاعل والمنتفق وبني لام، فضلاً عن عشائر ربيعة وتميم وزبيد وبني أسد وغيرها، أدت منذ بداية القرن السابع عشر الميلادي تقريباً دوراً رئيساً وحيوياً في تأريخ العراق الحديث، اذ أنها وبسبب غياب الدولة العراقية مثلت العراقيين المعروفين وعبر تاريخهم الطويل، بنزوعهم للحرية ورفضهم للاحتلال والتسلط الأجنبي والعبودية.

تعود بدايات التواجد البريطاني في العراق إلى عام 1635، إذ وصل أول مركب تجاري، وحصلت شركة الهند الشرقية الانكليزية[11]على اول ترخيص عام 1640 عندما نقلت ممتلكاتها من بندر عباس للبصرة عام 1645[12]. ففي هذا التاريخ تأسست أول محطة تجارية لهم، أخذت على عاتقها إجراء مباحثات مع الدولة العثمانية نتج عنها عقد معاهدة بين البلدين عام 1675، أسهمت في توسيع دائرة المصالح البريطانية في العراق، مما تطلب فتح مقيمية في البصرة عام 1765 للإشراف على النشاط البريطاني، الذي اخذ يتزايد بوتائر سريعة[13]. وتزامناً مع الحملة الفرنسية على مصر عام 1798، قررت حكومة الهند البريطانية نقل مقيمها في البصرة إلى بغداد عام 1798، وحلت مقيمية بغداد عام 1810 محل مقيمية البصرة[14]. وبرز النشاط البريطاني في المجال الاقتصادي وتغلغله بين صفوف المجتمع العراقي العشائري.

تمكنت بريطانيا من التغلغل في صفوف العشائر العراقية بصورة واسعة مقارنةً بتغلغل سائر الدول الأوربية الأخرى، لاسيما في حدود ولاية البصرة، مقارنةً بولايتي بغداد والموصل. ويرجع سبب ذلك إلى عدة اعتبارات منها قرب مركز مدينة البصرة من أراضي العشائر المستقرة التي تشتغل

(11) عن دور الشركة التجاري ينظر: يقظان سعدون العامر، نشاط شركة الهند الشرقية الانكليزية في البصرة، البصرة، 1990، ص7؛ محمود عبد الواحد محمود، النشاط التجاري والسياسي لشركة الهند الشرقية الانكليزية في الهند (1600- 1668)، رسالة ماجستير، كلية الآداب - جامعة بغداد، 1993، ص18-25.

(12) مصطفى عقيل الخطيب، التنافس الدولي في الخليج العربي 1622-1762، بيروت، 1981، ص132.

(13) زكي صالح، بريطانيا والعراق حتى عام 1914 دراسة في التاريخ الدولي والتوسع الاستعماري، بغداد، 1968، ص40 ؛ عبد العزيز سليمان نوار،المصالح البريطانية في أنهار العراق1600-1914، القاهرة، 1968، ص25-28.

(14) صالح العابد، موقف بريطانيا من النشاط الفرنسي في الخليج العربي 1798-1810، بغداد، 1979، ص41.

بالزراعة[15]. بل أن النشاط البريطاني من خلال القناصل في بغداد والبصرة، كان وراء الكثير من الاضطرابات الموجهة ضد السلطة العثمانية في المناطق العشائرية[16]. وبذلك بذلت بريطانيا جهداً استثنائياً عن طريق وكلائها في المنطقة لمد الجسور إليهم.

حافظت بريطانيا من خلال شركاتها التجارية العاملة في العراق على علاقاتها مع العشائر العراقية، حرصاً على نشاطها الاقتصادي وتوسعه، فأخذت شركة لنج تمارس سياسة تعميق علاقاتها مع شيوخ العشائر في طول البلاد وعرضها دون اللجوء إلى الحكومة العثمانية، لدرجة أن رئيس عشائر آلبو محمد مثلا كان يتعرض بصورة مستمرة للبواخر العثمانية. في الوقت الذي كان يسمح للبواخر البريطانية بالمرور بأمان في مناطق سكنى عشائره قرب العمارة[17]. أما عشيرة بني لام فإنها لم تكن أقل خطورة على النشاط الملاحي البريطاني في العراق، لذلك سعى ممثلو بريطانيا إلى ضمان سلامة مرور سفنهم وبواخرهم، لكنهم لم يحققوا هدفهم وهو كسب ود شيوخ بني لام بسبب نظرتهم الدينية للبريطانيين[18].

تمكنت بريطانيا من خلال جهود رجالاتها من ترسيخ نفوذها في العراق، إلى الدرجة التي أصبح بها المقيمون البريطانيون لهم التأثير المباشر في إصدار القرار السياسي أو تنظيم العلاقة بين العشائر العربية وولاة العراق[19]. حتى أصبح كارتر (Carter) نائب القنصل البريطاني في البصرة يلقب بـ "الشيخ الأبيض"، وذلك لنفوذه الكبير بين شيوخ العشائر هناك[20]. والجدير بالملاحظة ان المسؤولين البريطانيين في المدة (1876- 1908) قد أدوا دوراً وسيطاً بين شيوخ المنتفق والسلطات العثمانية، بهدف إقامة جسور من العلاقة مع عشائر جنوبي العراق، وتحريض بعضها للتمرد على الحكم العثماني[21].

---

(15) غسان العطية، العراق نشأة الدولة 1908- 1921، ترجمة: عطا عبد الوهاب، تقديم: حسين جميل، لندن، 1988، ص60-61.

(16) بونداريفسكي،التوغل البريطاني في جنوب وادي الرافدين ومحاولات احتلال الكويت في بداية القرن العشرين، ترجمة: نوري السامرائي، "الخليج العربي" (مجلة)، البصرة، العدد(3)، جامعة البصرة، 1975، ص50-51 ؛ البرت م. منتشاشفيلي، العراق في سنوات الانتداب البريطاني، ترجمة: هاشم صالح التكريتي، بغداد، 1978، ص106.

(17) عبد العزيز سليمان نوار، المصالح البريطانية في أنهار العراق، ص73 ؛ حسين محمد القهواتي، دور البصرة التجاري في الخليج العربي9681-1419، بغداد، 0891، ص227.

(18)عبد العزيز سليمان نوار، تاريخ العراق الحديث، ص157.

(19) صالح خضر محمد، الدبلوماسيون البريطانيون في العراق 1831-1914، بغداد، 2005، ص168.

(20) محمد سلمان حسن، التطور الاقتصادي في العراق. التجارة الخارجية والتطور الاقتصادي 1864– 1958، ج1، صيدا، 1965، ص32؛

Grattan Geary , Through Asiatic Turkey, Vol. I, London, 1878, P. 89

) 21(Stuart. A. Cohen, British Policy in Mesopotamia 1903-1914, London, 1976, P. 318.

إن الاهتمام البريطاني بالمنطقة الكردية قد تضاعف بشكل ملحوظ خلال الأعوام الأولى من القرن العشرين. ففي إطار تزايد ذلك الاهتمام جند عدد من الضباط البريطانيين لهذه الغاية فتجولوا في إنحاء مختلفة من المنطقة الكردية، وأقاموا صلات وثيقة مع بعض رؤساء العشائر الكردية هناك، بعد أن اطلعوا على تفاصيل حياة الكرد اليومية، وأتقنوا لغتهم بشكل دقيق، وخير نموذج في هذا المضمار الميجر سون (Soane)، الذي بدأ رحلته إلى المنطقة الكردية عام 1909 متنكراً باسم مواطن فارسي، زار خلالها عدد من مناطق الكرد، كالسليمانية وحلبجة مكث في بعضها أسابيع، وعده البريطانيون خبيراً في الشؤون الكردية [22]، إلى جانب الميجر نوئيل[23].

(22) سي. جي. ادموندز، كرد وترك وعرب، ترجمة: جرجيس فتح الله، بغداد، 1971، ص29- 31 ؛ صالح خضر محمد، المصدر السابق، ص218.

(23) المس غيرترود بيل، فصول من تاريخ العراق القريب، ترجمة: جعفر الخياط،ط2، بيروت،1971، ص208 ؛ ادموندز، المصدر السابق، ص35- 36.